Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 03:3 (1967)

القرآن الكريم

للاستاذ سميح عاطف الزين

اختار الله لوحيه أسماء مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة و تفصيلا ، و روعيت فى تلك الألقاب أسرار التسمية و موارد الاشتقاق و اشتهر منها لقبان : الكتاب و القرآن.

و فى تسميته بالكتاب اشارة الى جمعه فى السطور، لأن الكتابة جمع للحروف ، و رسم للألفاظ.

كما أن فى تسميته بالقرآن ايماءة الى حفظه فى الصدور ، لأن القرآن مصدر القراءة و فى القراءة استذكار.

على أن الذى غلب استعماله ، من بين هاتين التسميتين ، هو لفظ القرآن بالمدلول المصدرى حتى بات علما شخصيا لهذا الكتاب الكريم.

و القرآن الكريم ، بمقدار ما يختلف واقعه عن واقع غيره من اللفظ و المعنى و الوقع على النفس ، يظهر اعجازه. فالواقع المحسوس أن البشر يموت منهم أفراد ، و يحيا افراد ، و لو ترك الأموات بين الأحياء لأثروا عليهم تأثيرا شديدا من حيث سير عيشهم ، و كذلك بالنسبة للشجرة ، فاذا يبس منها فرع يفرخ فيها فرع آخر ، و لو ترك الفرع اليابس لأثر على الشجرة بكاملها و كذلك الامر بالنسبة للغة ، فبعد حدوث مشاكل ، و اختراعات أشياء جديدة ، و اكتشاف أشياء جديدة ، تحتاج الى أسماء جديدة ، كما أنه يخف و يبطل استعمال الفاظ معينة لمسميات معينة ، اما بتغيير اسم الشئ تغييرا كاملا ، و اما لعدم استعمال هذا الشئ ، و اما لعدم الحاجة اليه ، فتكون الألفاظ الّ خف استعمالها أو بطل موتى ، أو أصبح منها ألفاظ على طريق الموت ، فعلينا اذا أن نوارى

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الألفاظ التى لفظت أنفاسها الاخيرة ، و نشذب الألفاظ التى تدب فيها الحياة .

و لما كان واقع القرآن الكريم يختلف عن واقع البشر ، من حيث أن الفاظه تدل على معان لها وقع فريد ، فان الخلود مكتوب لهذا القرآن الكريم لم يلاحظ أحد أنه يستطاع أخذ لفظة واحدة منه و اعتبارها فى عداد الاموات ، و لا لفظة و لدت حديثا لتخلف لفظة قديمة لم تعد تستعمل . ان هذا يدل دلالة قاطعة على أن العالمين لا يستطيعون أن يأتوا بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

و نظرا لتماسك الوقع على النفس مع المعنى ، فى اللفظة الواحدة ، مثل كلمة (ضيزى) فنادرا ما تستعمل حاليا لمعنيى جائرة و ظالمة . و هاتان كلمتان شاع استعمالهما حاليا ، و لكنك لا تستطيع أن تحكم أن لفظة من هاتين اللفظتين تحل محل كلمة (ضيزى) لأن (ضيزى) عندما وضعت راعت المعنى مع النسج البلاغى ، و مع وقع معين على النفس . نعم هو نسج بلاغى انفرد به القرآن الكريم .

(و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) و الدليل على أن القرآن من عند الله عقلى ، فالقرآن واقع محسوس ، و يمكن للعقل أن يدرك أنه من عند الله ، انه كلام عربى فى ألفاظه و جمله ، و العرب نطقوا بكلام منه الشعر بأنواعه ، و منه النثر بأنواعه ، و كلامهم مدون فى الكتب ، و منقول عنهم استظهارا ، نقله الخلف عن السلف ، و رواه بعضهم عن بعض ، فهو اما أن يكون من طراز كلامهم ، من حيث هو ، فيكون قد قاله عربى بليغ ، و اما أن يكون من غير طراز كلامهم فيكون الذى قاله غير العرب و هو اما أن يقدر العرب فيقولوا مثله ، و اما أن يعجزوا عن أن يقولوا مثله ، مع أنه كلام عربى ، فان قالوا مثله ، فيكون كلام بشر مثلهم ، و ان عجزوا عن الاتيان بمثله ، مع أنه كلام عربى ، و هم فصحاء العرب و بلغاؤهم ، لم يكن كلام

بشر ، و الناظر فى القرآن ، و فى كلام العرب يجد أن القرآن طراز خاص من القول ، لم يسبق للعرب أن قالوا مثله ، و لا أتوا على هذا النمط من القول بشئ ، لا قبل نزول القرآن و لا بعده ، فدل ذلك على أن العرب لم يقولوا هذا القول فهو كلام غير هم ، و قد ثبت ، بالتواتر الذى يفيد القطع و اليقين ، أن العرب عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن مع تحد لهم فقد قال (و ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهداء كم من دون الله ان كنتم صادقين) . و قال : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله و ادعوا من اسطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) . و قال : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و ادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين)، و على الرغم من هذا التحدى الصارخ ، فانهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله ، فقد ثبت أنه من عند الله .

هو كلام الله لأنه يستحيل أن يقوله غير العرب لأنه كلام عربى و لأنه أعجز العرب ، و لا يقال انه كلام محمد ، لأن محمد عربى و من العرب فاذا ثبت العجز على جنس العرب ، فقد ثبت العجز عليه ، و طراز التعبير من حيث الألفاظ و الجمل يخضع له كل انسان ، بحسب ما هو متعارف عليه فى عصره أو ما روى عن كلام السابقين له ، و حين يجدد فى التعبير ، فانما يجدد فى استعمال الألفاظ و التعابير لمعان جديدة أو خيال جديد ، و يستحيل أن ينطق بما لم يسبق ما أحسه . و المشاهد فى طراز القرآن أن التعبير فيه ، من حيث الألفاظ و الجمل ، لم يكن معروفا فى عصر الرسول ، و لا من قبله ، لدى العرب ، فيستحيل عليه كبشر أن ينطق بشئ لم يسبق أن وقع عليه حسه ، لاستحالة ذلك عقلا ، فيستحيل أن يكون طراز التعبير القرآنى ، من حيث الألفاظ و الجمل ، صادرا عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ما دام لم يسبق لحسه أن وقع عليه ، فيكون القرآن كلام الله و قد أتى به محمد من

عنده ، و ذالك ثابت بالدليل العقلى ، حيث نزل القرآن. و ثابت بالدليل نفسه ، لأنه ما يزال معجزا للبشر عن أن يأتوا بمثله ، و لا يزال هذا الاعجاز ثابتا بالحس. و الحاصل أن القرآن اما أن يكون من العرب أو من محمد ، أو من الله و لا يمكن أن يأتى من غير هؤلاء الثلاثة. أما انه من العرب فباطل ، عجزوا عن الاتيان بمثله ، و أقروا بعجزهم ، و ما زالوا حتى اليوم عاجزين عن الاتيان بمثله ، و عليه فاما أن يكون من محمد و اما من الله عز و جل ، و ما محمد الا واحد من العرب ، و مهما سما العبقرى فانه لا يمكن أن يخرج عن عصره كليا ، فاذا عجز العرب عجز محمد لأنه واحد منهم. و قد روى عن محمد (صلى الله عليه وسلم) بطريق التواتر قوله : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) و اذا قورن كلام محمد بالقرآن لا يظهر أى تشابه بين الكلامين ، فدل ذلك على أن القرآن ليس كلام محمد ، و هو ما يثبت أنه كلام الله. على أن جميع الشعراء و الكتاب و الفلاسفة و المفكرين فى العالم يبدأون بأسلوب فيه بعض الضعف ، ثم يأخذ أسلوبهم فى الارتفاع الى أن يصلوا الى ذروة قدرتهم ، و لذلك يكون أسلوبهم مختلفا قوة و ضعفا ، فضلا عن وجود بعض الافكار السخيفة و التعابير الركيكة فى كلامهم ، فى حين القرآن من أول يوم نزلت فيه أول آية : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) الى آخر آية : (اليوم أكملت لكم دينكم) ، فى الذروة من البلاغة و الفصاحة و علو الافكار و قوة التعبير ، و لا تجد فيه تعبيرا واحدا ركيكا و لا فكرا واحدا سخيفا ، بل هو قطعة واحدة. و كله فى الأسلوب ، جملة و تفصيلا ، كالجملة الواحدة مما يدل على أنه فوق كلام البشر المعوض للاختلاف فى التعبير و المعانى ، و ذلك يثبت أنه كلام رب العالمين . ان القرآن اعتمد فى الدعوة على أساس فطرى ، ثم خاطب الناس بما يتفق و مداركهم ، لأن فى الناس العالم و الجاهل و الذكى و البسيط ،

و هؤلاء جميعا مدعوون ليؤمنوا بالله ايمانا عقليا ، و بالقرآن الكريم عن طريق العقل .

و حين نزلت آيات القرآن الكريم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) و بلغها للناس آمن بها المسلمون و حفظوها عن ظهر قلب ، و لم يروا فيها أى تناقض يحتاج الى التدقيق ، بل فهموا كل آية فى الجانب الذى جاءت تصفه أو تقرره ، فكانت منسجمة فى واقعها ، و فى نفوسهم ، و قد آمنوا و صدقوها و فهموها فهما مجملا ، و اكتفوا بهذا الفهم ، و اعتبروها وصفا لواقع أو تقريرا لحقائق .

(ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير)

نزوله ـ جمعه ـ رسمه

نزل القرآن على النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) مفرقا فى مدة ثلاث و عشرين سنة ، و كان نزوله على أنحاء شتى ، تارة يتتابع ، و تارة يتراخى .

و انما نزل منجما ، و لم ينزل دفعة واحدة لحكمة ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم قال : (و قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة ، واحدة كذلك نثبت به فؤادك) ، أى كذلك أنزل مفرقا بتفريقه فؤادك حتى تعيه و تحفظه .

و قال تعالى : (و قرآنا فرقناه ليقرأه على الناس على مكث و نزلناه تنزيلا) . أى على مهل و تؤدة و تثبت نزلناه تنزيلا أى حسب الحوادث .

وكان القرآن ينزل على رسول الله فيأمر بحفظه فى الصدور و كتابته فى الرقاع من جلد أو رق أو كاغذ ، و فى الاكتاف (والعسب) و اللخاف ، أى على العظم العريض و عسب النخل و الحجارة الرقيقة . و كان يقول اذا نزلت الآيات أو بعضها فى موضعها من السورة ، ألحقوا

هذه الآية فى سورة كذا ، بعد آية كذا ، فيضعونها موضعها فى السورة .

فاقرار الرسول هذه الكتابة ، و اجماع الصحابة عليها ، و واقع الاختلاف فى رسم الكلمة الواحدة بين سورة و سورة ، مع اتحاد اللفظ و المعنى ، كل ذلك دليل واضح على الجمع ، و الرسم الذى عليه المصحف هو توقيفى عن الله عز و جل .

ان علينا جمعه و قرآنه .

(انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون)

الاعجاز

الاعجاز أن تضعف القدرة الانسانية فى محاولة المعجزة ، و استمرار هذا الضعف على تراخى الزمن و تقدمه ، فكان العالم كله فى العجز انسان واحد ، ليس له غير مدته المحدودة ، بالغة ما بلغت .

اعجاز القرآن الكريم

لا يشرك العلماء معه كتابا ، فى خطره و منزلته ، و بعد غورة ، و احكام ترتيبه و قوة حجته ، و بسط عبارته ، و توثيق سرده .

فكأن القرآن قطعة واحدة ، على خلاف ما أنت واجه فى كلام كل بليغ ، من التفاوت باختلاف الوجوه التى يصرفه فيها ، و العلو فى موضع ، و النزول فى موضع ، ثم مايكون من فترة الطبع و مسحة النفس ، فى جهة بعث عليها الملل ، أو جهة استأنف فيها النشاط .

وقد يتحدى القرآن أهل البيان فى عبارات قارعة محرجة ، و لهجة قوية جزلة مرغمة أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا و لو استطاعوا لما تأخروا ، لشدة حرصهم على تكذيبه و معارضته ، بكل ما ملكت أيمانهم و اتسع له امكانهم هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدى الصارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة ، و هذا السكوت الذليل ، بعد ذلك الاستفزاز الشامخ ، هو أثر ذلك الكلام العزيز .

و القرآن هو اللفظ المنزل على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بما يدل عليه من معانيه. فالمعنى وحده لا يسمى قرآنا ، و اللفظ وحده لا يتأتى أن يكون دون معنى مطلقا، لأن أصل الوضع فى اللفظ انما هو فى الدلالة على معنى معين ، و لذلك وصف الله القرآن بوصف لفظه فقال عنه انه عربى فى قوله : (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) ، و قال : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) ، و العربية وصف للفظ القرآن لا لمعانيه ، لأن معانيه معان انسانية ، و ليست معانى عربية. و هى للانسان و ليست للعرب فقط.

و لا يصح أن يقال عن كتابة بعض معانيه بغير اللغة العربية : انها قرآن ، فعربية القرآن حتمية و هى عربية لفظه فحسب. و القرآن معجزة النبى محمد عليه الصلاة و السلام ، و ليس بمعجز للعرب الذين كانوا فى أيام الرسول فقط ، و لا للعرب وحدهم فى كل مكان و زمان ، بل هو معجزة للناس أجمعين لا فرق فى ذلك بين قبيل و قبيل ، لأن الخطاب للناس أجمعين. قال تعالى : (و ما أرسلناك الا كافة للناس) و لأن آيات التحدى عامة يقول : (و ادعوا من استطعتم من دون الله) و ذلك يشمل الناس جميعا ولأن القرآن أخبر عن عجز الجن و الانس ، فقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) و عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، و عجز الناس جميعا عن أن يأتوا بمثله.

و كان العرب اذا سمعوا القرآن أقبلوا عليه مأخوذين بسحر بلاغته حتى ان الوليد بن المغيرة قال للناس ، و قد سمع النبى (صلى الله عليه وسلم) يقرأ القرآن : (و الله ما منكم رجل أعرف بالاشعار منى ، و لا أعلم برجزه و قصيده منى ، و الله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا ، و الله ان لقوله الذى يقوله لحلاوة ، و ان عليه لطلاوة ، و انه لمورق أعلاه ، مغدق أسفله و انه ليعلو و لا يعلى عليه) ، مع أن الوليد

لم يؤمن و أصر على كفره. فالاعجاز آت من ذات القرآن ، لأن الذين سمعوه و الذين يسمعونه الى يوم القيامة يشهدون و يتحيرون من قوة تأثيره ، و قوة بلاغته، لمجرد سماعهم له : (لمن الملك اليوم و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة) ، (و اما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن عذاب الله شديد) ، و هكذا تتلى آية من القرآن أو آيات فاذا بألفاظها و أسلوبها و مراميها تستغرق أحاسيس الانسان و تستولى عليه. و اعجاز القرآن أظهر مايظهر فى فصاحة و بلاغة و ارتفاعه الى درجة مدهشة ، و يتجلى ذلك فى أسلوب القرآن المعجز ، فان فى أسلوبه ، من الوضوح و القوة و الجمال ما يعجز البشر عن أن يصلوا اليه. و مع كونه طرازا خاصا و نسيجا منفردا واضحا كل الوضوح تجده يقول :

ويخزهم و ينصركم عليهم و يشفى صدور قوم مومنين

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

و لو نظمت الآيتان لكانتا بيتين من الشعر ، و لكنهما ليسا شعرا ، و انما هما نوع من النثر فريد. و فى الوقت الذى تجد القرآن يقول هذا النوع من النثر تجده يقول : (و السماء و الطارق و ما أدراك ما الطارق النجم الثاقب ان كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب و الترائب).

و هو نثر بعيد عن الشعر كل البعد و يقول :

(و ما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، و لو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله و استغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ، فيطيل الفقرة و النفس فى النثر ، فتجده يقول : (و الشمس و ضحاها و القمر اذا تلاها و النهار اذا جلاها و الليل

اذا يغشاها) ، فيقصر الفقرة و النفس فى النثر مع أن كلا منهما نثر فى فقرات. و بينما تجده يبدع فى النثر المرسل حيث يقول : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم و من الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه و ان لم تؤتوه فاحذروا و من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى و لهم فى الآخرة عذاب عظيم) تجده يبدع فى النثر المسجع ، حيث يقول : (يا أيها المدثر ، قم فانذر ، و ربك فكبر و ثيابك فطهر ، و الرجز فاهجر ، و لا تمنن تستكثر ، و لربك فاصبر) ، ثم يتسامى فى الازدواج ، فيقول : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. .)

و يطيل ، فيقول : (قتل الانسان ما أكفره ، من أى شئ خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فاقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقضى ما أمره) و بينما يسير بسجعة معينة ، اذا هو يعدل عنها ، بسجعة أخرى ، مثل : (فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) ثم يعدل فى الآية التى بعدها مباشرة ، فيقول (ذرنى و من خلقت وحيدا ، و جعلت له مالا ممدودا ، و بنين شهودا ، و مهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا) و بعدها يعدل الى غيرها مباشرة ، فيقول : (انه فكر و قدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) و هكذا اذا تتبعت جميع القرآن وجدته ملتزما مما فى أسلوب العرب ، و لا يشبه أى قول من أقوال البشر. انك تجد أسلوبه واضحا قويا جميلا يؤدى المعانى بكيفية معينة من التعبير و يصورها أدق تصوير ، فتجده حين يكون المعنى رقيقا ، مثل : (ان للمتقين مفازا حدائق و أعنابا و كواعب أترابا و كأسا دهاقا) ، يأتى بالألفاظ

الرقيقة و الجمل السلسة ، و حين يكون المعنى جزلا مثل : (ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لايذوقون فيها بردا و لا شرابا الا حميما و غساقا جزاء وفاقا) ياتى بالألفاظ الفخمة و الجمل الجزلة ، و حين يكون المعنى مستنكرا يأتى باللفظ المستنكر لهذا المعنى ، فيقول : (ألكم الذكر و له الانثى تلك اذا قسمة ضيزى) و يقول : (و اغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) . و قد صاحب تأدية المعنى ، بهذه الكيفية من التعبير التى تصورها لهذه المعانى و ادراكها ، و لذلك كانت تبعث فى السامع المدرك ، لعمق هذه المعانى و بلاغة التعبير ، خشوعا عظيما ، حتى كاد بعض المفكرين العرب من البلغاء أن يسجد والها ، بالرغم من كفرهم و عنادهم ، ان المدقق فى ألفاظ القرآن الكريم و جمله يجد أنه يراعى ، عند وضع الحروف مع بعضها الأصوات التى تحدث منها عند خروجها من مخارجها ، فيجعل الحروف المتقاربة المخارج متقاربة الوضع فى الكلمة و الجملة ، و اذا حصل تباعد ، بين مخارجها ، فصل بينها بحرف يزيل و حشة الافتعال ، و فى نفس الوقت يجعل حرفا محببا ، من مخرج خفيف على الاذن ، يتكرر كاللازمة فى الموسيقى ، فلا يقول كالباعق المتدفق ، و انما يقول : كصيب ، و لا يقول : الهعخع) ، و انما يقول : (سندس) ، و لا يقول : (كالبعاق) بل يقول : (كمزن) و اذا اقتضى الأمر أن يستعمل الحروف المتباعدة وضعها فى المعنى الذى يليق بها ، ولايؤدى غيرها ، مثل كلمة (ضيزى) ، اذا لا تنفع مكانها كلمة (ظالمة) ، و لا (جائرة) ، مع أن المعنى واحد ، و مع هذه الدقة فى الاستعمال فان الحرف الذى يجعله لازمة يرد فى الآيات واضحا فى التردد ، فآية الكرسى ، مثلا ، ترددت السلام فيها ثلاثا و عشرين مرة بشكل محبب يؤثر على الأذن حتى ترهف للسماع و للاستزادة من هذا السماع . و هكذا تجد أن القرآن طراز خاص ،

و تجده ينزل كل معنى من المعانى فى اللفظ الذى يليق به و بالألفاظ التى حوله ، و المعانى التى معه ، و لا تجد ذلك يختلف فى آية من آياته ، فكان اعجازه واضحا فى أسلوبه ، فهو طراز خاص من القول لا يشبه كلام البشر ، و لا يشبهه كلام البشر ، من حيث انزال المعانى فى الألفاظ و الجمل اللائقة بها ، و من حيث وقع ألفاظ على أسماع من يدرك بلاغتها و يتعمق فى معانيها ، فيخشع حتى يكاد يسجد لها . و على أسماع من لا يدرك ذلك فيأسره جرس الألفاظ فى نسق يخشع له السامع قسرا ، و لو لم يدرك معانيه ، و لذلك كان معجزة ، و سيظل معجزة حتى قيام الساعة .